٧

الحضارة الأوروبية حضارة العنف والنهب والمنفعة اللاأخلاقية

obeikandl.com

منذ أربعة إلى خمسة قرون لم تكن هناك أوروبا التى نعرفها اليوم، لم تكن هناك دول قومية ولا نهضة علمية ولا حضارة، بل كانت أوروبا عبارة عن مجموعة من الأمراء والاقطاعيات، غارقة فى الصراع والحرب والقتال ثم حدثت عملية نهضة بدأت فى أكثر من بلد وامتدت لتشمل أوروبا ثم أمريكا وهو ما يسمى بعصر النهضة، وهو ذلك العصر الذى تم فيه بعث الثقافة والتراث والقيم الإغريقية القديمة والتراث السياسى اليونانى والرومانى، وشيئاً فشيئاً سادت الثقافة الإغريقية كل شىء فى أوروبا واختلطت بالثقافة السكسونية والجرمانية وشكلت ما يسمى بالحضارة الأوروبية، وهى حضارة تعكس القيم الثقافية والسياسية التى تقوم على الوثنية وإن كانت قد حملت قشرة مسيحية خارجية إلا أن جوهرها وثنى.

ومع الكشوف الجغرافية التى بدأت فى بلاط الملوك وخاصة الأسبان والبرتغاليين ومع اكتشاف الأمريكتين، بدأ عصر الاستعمار ونهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها بلا رحمة ولا هوادة، واستخدمت أوروبا تلك الثروات المنهوبة والأيدى العاملة التى جلبتها كرقيق فى دفع عملية اقتصادية هائلة تمخضت عن ظهور الرأسمالية ثم الثورة الصناعية، وذلك لتستخدم هذه الآلية الجديدة السياسية والعلمية «الرأسمالية والثورة الصناعية» فى المزيد من النهب والاسترقاق، وكانت المحصلة النهائية هى الرخاء والرفاهية المادية لجزء من العالم «عدد من الدول الأوروبية» على حساب ٨٠٪ من سكان العالم «عالم الجنوب عموماً»، وحتى سكان الشمال لم يحظوا جميعاً بالرفاهية بل قطاع صغير منهم على حساب الأغلبية.

إذن فالسمة الثانية بعد الوثنية التى تميز الحضارة الغربية هى سمة النهب، وبالطبع هذا النهب صاحبه القهر والعنف للشعوب المغلوبة على

أمرها وصاحب ذلك بالضرورة محاولات فلسفية وفكرية للحديث عن رسالة الرجل الأبيض وتفوقه وتميزه لتبرير خضوع الشعوب الأخرى لهذا الرجل وتبرير استرقاق العبيد وخاصة السود ومنها نشأت التفرقة العنصرية التى ما زالت موجودة حتى الآن فى كل أوروبا وأمريكا من خلال الممارسات غير الرسمية وفى جنوب افريقيا رسمياً وقانونياً، وصاحب الرأسمالية بالطبع عملية البحث عن الربح بأى ثمن والتطاحن فيما بين الرأسماليين لتحقيق أقصى ربح ممكن، وهكذا أخذت الحضارة الغربية سمتى المنفعة اللاأخلاقية والتطاحن.

وهكذا فإن السمات العامة للحضارة الغربية هى الوثنية، المنفعة اللاأخلاقية، القهر ، العنف، النهب، التطاحن، العنصرية.

والحضارة الغربية، أو الحضارة الأوروبية، تضم بالطبع أوروبا وأمريكا على اعتبار أن أمريكا جزء لا يتجزأ من السياق الحضارى الأوروبى، بل هى أسوأ أجزائها وأبشع تطوراتها وذلك أنها نشأت أساساً على يد حثالة الأوروبيين من المهاجرين والمغامرين والأفاقين، أى أن أمريكا تحمل السمات الأساسية للحضارة الغربية وهى: النهب، الوثنية، العنف، العنصرية، المنفعة اللاأخلاقية، بل وفى أسوأ صورها وممارساتها وانتماء أمريكا للحضارة الغربية أمر لا يختلف عليه اثنان بحكم الأصل والممارسة وريتشارد نيكسون يقول فى هذا الصدد: «وطن مشترك عبر المحيط الأطلنطى» .. ويضيف: «علينا أن نبنى وطناً مشتركاً عبر الأطلنطى من كاليفورنيا حتى كمشاتة».

وإذا ما نظرنا إلى الإفرازات الفلسفية والسياسية والإجتماعية نجد أن الحضارة الأوروبية قد أفرزت الرأسمالية، الشيوعية، الاشتراكية الديمقراطية، النازية، الفاشية، الصهيونية، وهى إفرازات كلها بشعة لأن

الرحم الذى خرجت منه رحم قذر وبلا ضمير، فالرأسمالية مثلاً مسئولة عن جزء كبير من النهب والقهر الذى عانت منه معظم شعوب العالم، والشيوعية مثلاً ارتكبت المذابح فى البلاد التى سيطرت عليها وارتكبت جرائم الغزو بحق الآخرين مثل غزو أفغانستان، المجر، تشيكوسلوفاكيا، الفاشية والنازية تسببتا فى حروب طاحنة راح ضحيتها عشرات الملايين من البشر، أما الإشتراكية الديمقراطية فهى المسئولة عن العدوان الثلاثى على مصر مثلاً سنة ١٩٥٦ حيث كان يحكم البلاد المعتدية أحزاب اشتراكية: حزب العمال البريطانى، الحزب الاشتراكى الفرنسى، وحزب العمل الإسرائيلى، والجزائر مثلاً لم تعان فى فترات احتلالها أكبر وأفظع الممارسات إلا عندما كان الحزب الاشتراكى يحكم فرنسا، وإسرائيل مثلاً تتلقى أكبر الدعم من الحكومات الديمقراطية الاشتراكية فى أوروبا، أما الصهيونية فجريمتها فى فلسطين معروفة.

وهكذا فإن كل ما أفرزته الحضارة الغربية كان وبالاً على البشرية مما يدل على أنها حضارة فاسدة فى أساسها، بل إن إفرازات الحضارة الغربية لم تتورع عن إلحاق الأذى بأبناء الحضارة الغربية أنفسهم الرأسمالية فى الحرب العالمية الأولى مثلاً والفاشية والنازية فى الحرب العالمية الثانية التى مات فيها ٦٢ مليوناً من البشر.

والسجل الأسود للحضارة الغربية يضم أيضاً إبادة ١٠٠ مليون* من الهنود الحمر ومثلهم من الأفارقة الذين ماتوا من جراء القتل أو الحرق أو إرهاق العمل والإسترقاق أو من جراء المعاملة السيئة فى المراكب التى كانت تنقل الرقيق من إفريقيا إلى أوروبا وأمريكا، وفى الجزائر مثلاً قام

* فى وقت كان فيه سكان انجلترا مثلاً ٣ ملايين نسمة أى أن الحضارة الغربية مسئولة عن قتل ٣٠ ضعف سكان انجلترا من الأفارقة ومثلهم من الهنود.

الاستعمار الفرنسى بقتل وتهجير مليونين من السكان «كانت الجزائر وقتها ٤ ملايين.. أى أنهم قتلوا نصف السكان فى عملية الإحتلال ثم راحوا يقتلون مئات الألوف كل عدة سنوات مع كل انتفاضة».

ولنستمع إلى شهادة الرئيس الجزائرى الأسبق فى هذا الصدد*، يقول بن بيلا: «إن الصورة ما بين قتل الهنود الحمر وإبادة الزنوج والعرب إلى جرائم هتلر وموسولينى وستالين مروراً على كرومر ونابليون واللنبى وبيجو إلى يومنا هذا، هناك خيط واحد متسلسل بمنطق واحد، حلقة مخلقة، ثم القنابل الذرية والحروب العالمية التى انتهت باستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان، والتى بلغ عدد القتلى فى تلك الحروب ٦٢ مليوناً من البشر، ثم أفران الغاز وجرائم ستالين المروعة وصولاً إلى ما فعلوه فى بيروت وفلسطين، إنها الحضارة الغربية، حضارة القتل والذبح والتدمير والحروب والقنابل الذرية والإبادة والجوع وإبادة الغابات وإفساد البيئة.

ويضيف بن بيلا : «تمخضت تلك الحضارة عن إبادة أجناس كاملة مثل الهنود الحمر، وعن استرقاق الزنوج، وعن ظهور طفل خبيث هو الاستعمار الذى هيمن ولم تقف حدود هيمنته إلا عند آخر حدود الأرض وما زالت هذه الهيمنة قائمة ومستمرة إلى يومنا هذا وإن كانت الأساليب قد تبدلت وتغيرت وتمخضت تلك الحضارة المريضة عن حروب داخلية وقمع بشعين، وعن حروب عالمية ١٩١٤، ١٩٣٩ وذهب فى الأخيرة وحدها ستون مليوناً من البشر، وأدت تلك الحضارة إلى ظهور نماذج مثل هتلر وستالين وموسولينى وأدت إلى إعدام الزراعة فى كثير من بلدان العالم، خصوصا النامية وأدت إلى المجاعة التى يموت بسببها خمسون مليوناً من البشر

---

* محمد خليفة ـ حوار معرفى شامل مع بن بيلا.

سنوياً من ضمنهم خمسة عشر مليون طفل، ومأساة الجوع هذه تتضخم بسرعة هائلة بسبب القضاء على الزراعة، وقد بقيت الولايات المتحدة وحدها القادرة على تصدير الغذاء وهذه لن تبيع الغذاء لك إلا إذا كنت شخصاً مرضياً عنه، وهناك ١٧ مليون هكتار يتم القضاء عليها سنوياً وهى عنصر التوازن البيئى الأول، ٤٠٪ من الغابة الإستوائية انتهى، وفى ألمانيا ذاتها، الغابة السوداء الشهيرة ستنتهى خلال عشر سنوات، كما انتهت بالفعل غابات أخرى فى ألمانيا وسويسرا وغيرها، وهناك زحف الصحراء، وهناك مأساة التلوث البيئى التى تتكشف أخطارها كل يوم، هناك ٤١ دولة مفلسة لا تستطيع حتى أن تدفع فوائد ديونها وهى شعوب تعيش شبه متسولة أشبه ما تكون بوضع البعير فى الماء بالكاد يبقى رأسها فوق الماء لتتنفس ولا تموت بسرعة، وهذا الوضع ليس مرشحاً للنقصان بل العكس، البنك الدولى نفسه يقول أن ٤١ دولة يمكن أن تصبح مائة دولة، إن ثلاثة أرباع البشرية اليوم لا يعيش بينما الربع يحظى بكل شىء ويستهلك كيفما يشاء. والأخطر أن هذه النسبة تزداد تضخما فتصبح ٤/٣، ٥/٤، ٦/٥ وهكذا، وهناك الإغتراب بسبب تقسيم مجحف وغير طبيعى للعمل إلى أجزاء صغيرة، إن فرنسا مثلاً فيها تسعة ملايين كلب، ٨ ملايين قطة تستهلك ٤ مليارات دولار فى حين أن ميزانية الصومال مثلاً ٤٠٠ مليون دولار أى أن كلاب وقطط فرنسا تأكل عشر مرات أكثر مما يأكل الشعب الصومالى كله. إن النظام الذى تمخض عن هذه الحضارة ينظم الأزمات متعمداً ويخلقها ويوزعها على الدول الفقيرة والمتخلفة، وهى حلقات مترابطة من إفلاس الدول إلى المجاعة إلى أزمة البيئة، إلى التصحر، إنها أزمة حضارة كاملة.

* * *

إن الذين يقدمون لنا أمريكا اليوم كقائدة للنظام العالمى الجديد، ويبشرون بقيمة الحرية على أنها قيمة أمريكية كبرى، هؤلاء ينسون أن تلك الحرية المزعومة قد قامت على ذبح الهنود الحمر، واسترقاق السود، وأنه باسم تلك الحرية ثم دعم اسرائيل على حساب الشعب الفلسطينى، وأن أمريكا هذه التى يروجون لها ويطلبون منا أن نقبل بقيادتها غزت الكثير من الشعوب، وأسقطت طائرات مدنية مثل الطائرة الإيرانية المدنية عام ١٩٨٨ فوق الخليج، وتمارس ازدواجاً مروعاً فى المعايير فيما يخص العرب والمسلمين.

وهؤلاء الذين يتحدثون عن قيم الحرية والإخاء والمساواة التى فجرتها الثورة الفرنسية يتناسون أن أبناء تلك الثورة الفرنسية هم الذين ذبحوا الشعب الجزائرى ونهبوا ثرواته، بل وهؤلاء أنفسهم دعاة الحرية والإخاء والمساواة رفضوا إعطاء الجنسية الفرنسية للجزائريين عندما ضموا الجزائر لفرنسا، أى أنهم رفضوا تطبيق مبدأ المساواة المزعوم.

***

وفى الحقيقة فإن الذين يتحدثون عن الحضارة الغربية باعتبارها حضارة تقدمية أو صالحة يقعون فى الخطأ، ذلك أنهم ينظرون إلى المسألة فى شقها الأوروبى أى بالنظر إلى التاريخ الأوروبى وحده، وكأن أوروبا هى كل العالم، أى يذكرون أوروبا وينسون باقى العالم، ولو كانوا منهجيين لدرسوا الحضارة الأوروبية بمنظور ومن خلال ممارساتها فى العالم كله.. إذن لاكتشفوا أنها أبادت شعوباً واسترقت أخرى ونهبت الجميع ومارست التفرقة العنصرية وزعمت سيادة البيض على غيرهم.. ولو وضعوا هذه الأمور فى معاييرهم لكانت الحضارة الغربية حضارة همجية ومتوحشة ورجعية.

وحتى فى شقها الأوروبى أو بالنظر إلى التاريخ الأوروبى، فإن تلك

الحضارة تمخضت عن الفاشية والشيوعية والنازية وفجرت حربين راح ضحيتهما عشرات الملايين من البشر من أهل أوروبا أساساً، إذن فهى حضارة الصراع حتى مع بعضها البعض، وكذلك فإنها أفسدت البيئة وأخلت بالتوازن البيولوجى فى الكون، وتسببت فى الإيدز والمخدرات، وفى أسلحة الدمار الشامل، أى أنها خطر على الآخرين.. خطر على نفسها.. خطر على الأرض كلها ومستقبل الحياة البشرية فيها، فكيف تكون هذه حضارة مرشحة لقيادة العالم !

obeikandl.com